

دمية القمر

هذا سُروري بأبي عامر ... مُغرِّقي في لُجَّةِ الغامر .
فتىً إذا جَراهُ في مَفْخَرٍ ... مُسَاجِلُ خاطِرٍ بالخاطر .
النثرُ جسمٌ وهُوَ رُوحٌ له ... والذِّظْمُ عَيْنٌ وهو كالناظر .
فممّا أنشدني لنفسه من شعره الذي يغدو ويروح ممتزجاً بالروح قوله في الغزل :
نفسي الفداء لشادنٍ ... بَلَّواه عِنْدِي تُسْتَحَبُّ .
فإذا بَلَّوتُ خِلَالَه ... فالماءُ يُشْرِبُ وهُوَ عَذْبٌ .
وإذا نَصَّوتُ ثيابه ... فاللوز يُقَشِّرُ وهُوَ رَطْبٌ .
وقُصارُ وَصْفِي أَنَّهُ ... فيما أَحَبُّ كما أُحِبُّ .

قلت : هذا وإِني وَصفُ تَطَلُّعٍ إِلَيْهِ الْأَحْدَاقُ وَتَحَلُّبٍ عَلَيْهِ الْأَشْدَاقُ وَلَهُ أَيْضاً :
صَبَحْتُ مَعْهَدَ أُنْسِي ... أرومُ تَرْوِيحَ نَفْسِي .
فحينَ وَافيتُ قالوا : ... قد فارقَ الشيخُ أَمْسَ .
فأظلمَ اليومُ عِنْدِي ... وكدتُ في الحالِ أُمْسِي .
فيا مَسَرَّةَ قَلْبِي ... ويا هِلالي وشَمْسِي .
أَتَسْتَجِيزُ فِرَاقِي ... من دونِ تَزْوِيدِ أُنْسِي .
وَأَنْتَ أَنْتَ وَوُدِّي ... ما قدْ عَلِمْتَ وَبَسْ .
الشيخ الرئيس .

أبو المحاسن سعد بن محمد بن منصور .

الإمام المختلف إليه والهُمامُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ . لم تُخْرَجْ فتىً مثله الْفَتَيَانِ ولم تَرَ الْعِيونَ نَظِيرَه في الْأَعْيَانِ . وَاتَّفَقَ أَنْبِي خِيَمَتُ في معسكر السلطان الشهيد طُغْرُلُوكْ بك هـ بظاهر جرجان . وَكُنْتُ يَوْمئذٍ مُرَشَّحاً لِدِيوانِ الرِّسَالَةِ وَمَوْشَّحاً بِجِشْمَةِ الْكِتَابَةِ .
وَالْوَزِيرُ رَئِيسُ الرُّؤَسَاءِ الصَّاحِبُ أَبُو عَبْدِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مِيكَائِيلَ يَجْذِبُ بِصَدْعِي مِنْ بَيْنِ نُطْرَاتِي وَيَخُصُّنِي بِالرَّعَايَةِ وَالْعَنَايَةِ مِنْ بَيْنِ أَكْفَائِي .

ولعلَّ الرِّيسَ أَبَا الْمَحَاسَنِ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ كَانَ سَمِعَ بِخَبَرِي أَوْ وَقَفَ عَلَى أَثَرِي فَحَضَرَ دِيوانَ الْوِزَارَةِ وَدَلَّتْهُ الْفِرَاسَةُ عَلَيَّ فَقَسَمَ طَرْفَهُ بَيْنَ طَرَفِيَّ وَهُوَ مُتَرَدِّدٌ الرَّاْيَ بَيْنَ الشُّكِّ وَالْيَقِينِ مَتَشَعِّبٌ الْمَذْهَبَ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالتَّخْمِينِ . فَاِبْتَدَأَتْهُ بِالسَّلَامِ وَقَمْتُ مِثْلًا أَمَامَ ذَلِكَ الْإِمَامِ وَقُلْتُ : " أَنَا ذَاكَ الَّذِي طَنَنْتَ وَأَنْتَ فِي مَدَقِ الْفِرَاسَةِ أَنْتَ . فَأَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْ " وَقَالَ : " مَرْحَباً بِقَادِمٍ لَهْ عِنْدَنَا مَحَلٌّ الْإِخَاءِ " فَقُلْتُ : " قَادِمٌ

ولكن بالخاء " . فتعجب من حضور جوابي وأُعجبَ بي وبآدابي وأثنى عليّ في ديوان
الوزارة بما طرّزَ به كمٌّ جاهي وقَدّري شرح للرأي الصاحبي من أحوالي ما انشرح له
قلبي وصَدري . وزُرتَه في مقرِّ عزِّه بجُرجان من الغد ورتَّعتُ عنده في ظلِّ الرِّغْد .
وتجاذبنا أهداب المذاكرة بياضَ نهارنا وشطرا من سوادِ ليلنا ؛ وجرى بيننا من الفوائد
ما تخيَّرتُه الغواني لأوساط الفوائد . ومدحته بعد ذلك بقصيدة دالية مطلعها :
عجبتُ لطيفها أنسى تَصَدِّي ... وأومضَ بالتواصل ثم صَدَّأ .
نصبتُ لصيده أشراكَ نَوَمي ... وصاحَ الانتباهُ به فَنَدَّأ .
هو الطاووسُ زَيْلًا واخْتِيالًا ... ولكنْ كالقَطَا ليلًا تَهْدِي .
فلمَّا بلغتُ هذا البيت قال : " ما أحسن ما جمعتَ في المعنى بين هذين الطائرين ؛ قد
طيَّرتَهما على السنة الرُّوابة سائرين " وتخلَّصتُ إلى المدح فلمَّا سمع قولي فيه :
عَلا هِمَمًا فليس يَهْشُ إِلَّا ... إلى قُرصر السماء إذا تغدِّي .
هزَّ إليَّ مَلَاثَ العِمامة وشهد لي في الصنعة بالإمامة . حتى انتهيتُ إلى قولي :
مِنَ القوم الذينَ إذا استُمدُّوا ... نَدَى فَضَحوا الخِضمَّ المُستمدِّا .
فَلَا وَدَّوا رَأْسَ العِزِّ شَجًّا ... ولا شَجَّوا بدار الهُون وُدًّا .
قال : هذا مقلوبٌ ترتاح إليه أسماعُ وقلوبُ . واتفق أتي أنشدتُ هذه المِدحة في
الجامع بجُرجان بعد الانتقال من المكتوبة وانقضاء المجلس المعقود للنظر ومن الحاضرين
هناك الشيخُ أبو عامر أدام الله فضله وهو المعنيُّ بكلامي ؛ بمَشْطُ أصداعه ويخلطُ
أصباغه ويُعَمِّر بلسان التحسين نَوَاحيه ويخلِّقُ بأنشام التَّزيين أقاحيه